



السقوط والعطش

بقلم محمود حسن العزب

حارة محملة بذرات الرمل . لفحت وجهه ، ولسعت جفونه . أدار وجهه يتجنب مرورها . لمح التل مرتديا غلالة من اللهب ، ترافص بلا إيقاع تحت عينيه . زرر جفونه ، وسحب عينيه عن التل في دهشة . لم يصدق انه تدرج من فوقه ، لكنه فعلها كمحاولة أخيرة للوصول الى العربة ، الى شيء ما ، كما حدث في كل محاولة سابقة . كان احدهما يتكلم في البداية مشجعا الآخر باسم : محاولة .. أخيرة . ثم تتكرر المحاولات في صمت ، كأنها قدر مفروغ منه في جوف الصحراء . لكن مخيلته نحفظ بمحاولة من نوع آخر . محاولة هوان أولى ، حدثت بعد وصوله الى جبل (البنى) بيومين . في الظلام ايقل (الرقيب) جنود الاحتياط ، وأمر بحفر خنادق في ارض رملية مكشوفة ، وبعمق متر ونصف ، وبسعة نصف متر . تحمس «اسماعيل» للعمل ، ونجراً مستغلا الظلام وقال :

- يا فندم .. لم نحصل على ماء من ٢٤ ساعة .!

- على صاحب الصوت ان يحفر خندقين في وقت واحد ! بعد ثلاث ساعات ، انتقل الى حفر الخندق الثاني ، وتولت الرياح في نفس الوقت ردم الخندق الاول . استنجد بطلب شكايير رمل لحماية الخندق . سمعه «الرقيب» . نهره بفلظة ، ودفعه في الخندق ، فسقط على وجهه . هم ان يطش به «الرقيب» بطريقة اخرى ، لولا ان تعالت اصوات مجاورة تطلب الشكايير ، صرف «الرقيب» المسألة باعلان احضارها في وقت آخر . مسح «اسماعيل» الرمل عن وجهه ، ودعك انفه بقوة ، باغتته الرغبة في البكاء ، فاستجاب لها .

توارت ذكرى سفوطه على وجهه حين استهلكه عمل الطوابير ، استغرقت تدريبات الاحتياط كل حواسه ، وعاش يومه الرابع مع اسلحة جديدة ، مبهورا بالاستماع الى محاضرة عن طرق استعمالها ، لكن المحاضرة طالت في عين الشمس ، واحس ان جلدة رأسه نكاد تنكش ، وأنه مجهد على غير العادة ، وفي حاجة الى النوم والظل ، لكنه ارغم نفسه على الانتباه والثبات ، فالوقت لا يسمح بالشكوى . لا بد ان يعرف الكثير عن الاسلحة . الكثير مما يحتاج اليه . تيم توفف الضابط المحاضر ، ومسح عرقه ، وحدد للشروح التالية صباح الفد .

راح «اسماعيل» في النوم طوال ليلته ، دون ان ينتبه لما طاف به من احلام غامضة ، واستيقظ في الصباح مبكرا ، يخالجه شعور خفي بالقلق ، علله بثقل في رأسه ، ثم نسيه بعد لحظات مع حركة

ارتدى جسداهما فوق التل ، نقلبا اكثر من مرة في سخونة الرمل . اغمض «اسماعيل» عينيه ، وترك الشمس لتلق في جسده . انتظر ان يكف عن التنفس في اية لحظة . احس بخدر غريب ينتفل في جسده . حرك اصبعه في الرمل . رسم مستطيلا يلائم حجم جسمه . برر الامر لنفسه : ربما حاجة دفينه تؤثر احتواء جثته في مساحة مستقلة . تمدد بتراخ . طمست قدمه جانبا من المستطيل . خيل اليه وهو يفرد قدمه ، ان العالم ضيق ، لا تكاد تنبسط حدوده ابعد من جسمه . فضل ان يكوم اطرافه . ومد بصره بعيدا يشهد احتكاك المساحات الرملية بشريط الأفق الملتهب ، وكيف تكتسي هذه المساحات بنار الظهيرة . وفعت عيناه قرب التل على عربة مغطلة . ارتفعت جفونه ، وهز كف زميله بلهفة . انثابت جسد زميله رعشة لم يتوقعها . ودون ان ينطق بكلمة لف دماغه بيديه ، وتمدد على المنحدر ، تاركا جسده يتدرج الى السفح . هم «اسماعيل» ان يصيح به محذرا . احتبس صوته في جفاف حلقه . اسرع بقلق فمه هربا من لسعة الصهد . تردد برهة . اغمض عينيه وتدرج . هو الآخر . حين وصل الى اسفل ، تكوم جسده كحزمة فش ، ورفض ان يتحرك . خطر له انه ربما اصيب . فرد جسمه بمشقة . تحسسه يقدر الخسارة . دخلت هبة صهد في عينه كالشرارة . دعك عينه فسى هياج . لا يعق له ان يستسلم لرقده . الشمس تلمظ لجلده ، وطمع ان تفري لحمه . فكر ان يجرب الزحف على بطنه . لكنسه تجاهل الفكرة ، واعلن لزميله يائسا وهو يتمرغ في الرمل الساخن : لن اتحرك بعد الان !

- هذه العربة .. لا بد ان بها ماء .!

ماء !!

كانها الكلمة الاولى . اختلج جسده برعشة طفلية ، كرضيع يحلم برائحة ثدي امه . تقلب على نقل رأسه المعفر ورفعته . أدار رقبته المتسلخة بخدر ، احتك بها المندبل ، ووخز جروحها . قوس جسده ، وحدق في العربة . هم بالوقوف ، لم تسعفه قواه ، اقترح ان يتجها اليها حيوا ، وتدرع لصاحبه بخطر الوقوف والشمي ، فسى ساحة مكشوفة للعدو .

عينا زميله مشدودتان نحو العربة ، ونفغان عن اية عيون اخرى قد ترصد العربة . تمهل «اسماعيل» لحظة ، وأرهف السمع . لا شيء حول العربة سوى الصمت ، وعيون الشمس المتوهجة . هبت نسمة

الاسلحة اللامعة ، وهي تنتقل هنا وهناك . واجتاحتها رغبة تقبيل احد هذه الاسلحة ، وداعيته نشوة رقيقة حين بهره منظر الشمس ، وهي تحف برؤوس الجبل ، ثم نزحف عبر المساحات الشاسعة الممتدة حتى ((العريش)) .

- ترى كم المسافة من هنا حتى العريش ؟
قال زميل قديم :

- حوالي ١٥ كيلومترا . مساحة كافية لاعداد مقابر الاعداء ..
لن نبخل على كل فرد بقبر مستقل .. ما رأيكم في ذلك ؟
اسرع احد الجنود يقول ضاحكا :
- معك حق .. لا داعي لان نكدسهم في مساحة ضيقة .. لسنا في عجلة على كل حال !

ضحك الجميع وهم ينتظرون في الطابور ، وغرق جبل (لبنى) في ضياء الشمس ، واندثرت كل الظلال ، رغم ان الساعة لا تزيد عن العاشرة . ولم يسلم من فضول الشمس سوى خيمة القائد .

افتتح الضابط محاضراته بتمهيد قصير ، دوت على اثره طلقات مدفعية ثقيلة . اتجهت الانظار لرصد مصدرها . قدر القدامى من الجنود انها لا تبعد عن موقعهم بأكثر من ٢٠ كيلومترا . انهالت الاستفسارات على المحاضر الشاب . كان حديث التخرج برتبة نقيب ، يهتم بتلويين مقاطع كلمانه ، مثلما يهتم بلمس نظارته الانيقة . خلع نظارته ، ومسحها بقطعة فطيفة ، واعلن بهوء ، ان ذلك بلا ريب ديناميت لتفتيت الصخور .

تنفس الجميع بارتياح ، واستمرت المحاضرة ، حتى توفقت ربع ساعة للراحة .

انفرد ((اسماعيل)) بنفسه بجوار نبة ، وأخرج من جيبه مصحفا ، وصورة فتاة . سرح في الوجه لحظات . فتح المصحف ، وأطل عفوا في الصفحة وهم ان يقرأ : ((.. يا بني اني ارى في المنام انسي اذبحك فانظر ماذا نرى ..)) . ملا اذنيه فجأة ازيز طائرتين . ارتدى خلف النبة دون ان يدري . عبرت الطائرتان الجبل ، وهبطتا على الموقع . هم بعض الجنود ان يصفق ظنا منه انهما من نسورهم . اقتربنا فوفهم بما لا يزيد عن عشرين مترا فاتحة نيران ((الفيرز)) . تسمروا في مواقعهم من المفاجأة ، ولم ينتبهوا لانفسهم الا بعد فوات لحظات نادرة . اصيب عدد من الجنود . وانفجرت بعض صناديق الذخيرة . وسرت الهمهمات في اكثر من جهة . ونفض البعض التراب عن وجهه وصدره . وتجراً احد الجنود ، وسأل قائد الفصيلة ، حين خرج من الخيمة مرتديا الافرول العسكري ، دون ان يفلقه :

- هل قامت الحرب يا فندم ؟

- يبدو ذلك !

- ولماذا لم نعرف يا فندم ؟

- الزم موقعك يا عسكري .. وممنوع الضرب الا بأوامر .

- ولكن

- عد الى موقعك فوراً .. والا ..

- حاضر يا فندم !

قلب ((اسماعيل)) سلاحه في يده ، بربت عليه ويلطفه ، يشبته في مكانه ، ويرفع كفيه الى السماء ، ويتمتم بلا حساب . تعبر خندقه أقدام مشدودة ، ينتبه لوقعها . يستفسر من اصحابها عن اخبار . يعرف ان قائد الفصيلة ، استدعى احد الجنود لمعرفة درجة التردد في اللاسلكي ، ثم عاد لهم بأذنين مرتختين ، وجواب غير شاف به آثار تشويش . هبط الشرود بينهم ، ونظر كل منهم في وجه الاخر ، وخيل الى ((اسماعيل)) ان لحظة الصمت والشرود تظلل الموقع كله . تطلعت العيون بالسماء ، ترقب وجهها بقلق مجهول ، ومن بعيد ، لم تنقطع الطائرات المعادية عن الظهور والحركة ، يتبعها دوي عنيف يصطدم صداه بالجبل ، وترددت صيحات غضب في عدد من الخنادق:

- يا خبر اسود .. اين طائراتنا ؟!

تمتم جندي بنبرة اساءة ، ثم علا صوته يخاطب نفسه : اللاسلكي سيحسن .. واخبار الراديو طيبة على كل حال !

تململ ((اسماعيل)) خلف سلاحه .. أزهف سمعه لصوت الراديو الترانزستور في خندق مجاور . اجتاحتها الرغبة في الحصول عليه . اغرى احد زملائه بتحقيق رغبته . تقدم زميله ، وبخفة خطف الراديو ، لاحقته صيحات الاحتجاج ، تركها تدوب في صوت اذاعي هادر كمصفحة مقتحمة يقول : ... وبلغ عدد الطائرات التي اسقطت حتى الان ٣٦ طائرة .. الى النصر يا رجال .. هذا يومكم .. هذا موعدكم ..

انفض جسد ((اسماعيل)) برعشة وخبط سلاحه ملاطفا وهم ان يركع على الرمل مقبلا ذراته . هلل زميله وكبير ، كانه يعلو مئذنة . التفت اليه كثير من رجال الخنادق . جاوبوه بالكبير . بكى الجندي تائرا . ثم لم يملك نفسه ان مال على اسماعيل وعانقه . تبددت من صدر ((اسماعيل)) ظلال خوف ، وحل محلها احساس هادئ وقور ، ممتزج بنوع غريب من النشوة ، ولم يدر كيف تكررت المرات التي تحسس فيها أجزاء معينة من سلاحه ، كما يتحسس الطفل وجة امه ، وعينها ، قبل ان يلوذ بصدرها . ظهر ((الرفيب)) متهللا هو الاخر ، طائراً بين الخنادق ، وهو يعلن ان القوات المتقدمة نوغلت حتى الان ١٢ كيلو داخل الارض المحتلة .. «وستبهم الليلة .. يا رجال .. بمجرد ان تصل الاوامر» .

ضج الموقع بالتهليل والتكبير في ابعاع واحد ، وبوسط بعضهم خندقه يرفص والسلاح في يده .

(كانت بشرى يتيمة !!)

كرر الراديو اسقاط عدد اخر من طائرات العدو بالمدافع المضادة . التفتوا نحو ((الرفيب)) يرددون السؤال :

- ولكن .. اين طائراتنا ؟

خيم الصمت لحظة ، تسمر ((الرفيب)) في مكانه امام الحاح السؤال ، ثم وجد نفسه ينسحب مبتعدا !

التفت جندي نحو جاره ، وهم ان يحرك شفثيه بكلمة غير مفهومة . تمهل برهة ، وتشاغل بلمس صندوق الذخيرة . سأل فجأة عن الساعة . تجاهل جاره النظر الى معصمه ، حلق في فوهة مدفعه ، وقال :

- الثالثة .. تقريبا !

- اين غداؤنا .. لقد جعنا ؟!

تدخل ((اسماعيل)) وقال مبتسما :

- لا يهم الفداء . سنتعشى هناك !

خبط الجندي ظهر ((اسماعيل)) ضاحكا . غمرت عدوى الضحك الوجوه العابسة ، وكثرت ملاطفة الاسلحة .

ولكن صوتا جافا قطع ضحكته ، وقال :

- طيب .. والماء ؟ .. انا عطشان .

الماء .. !!

سعل ((اسماعيل)) بخشونة من شرق بحفنة ماء . حلق في العربية باحساس من نخطى المسافة الباقية . اضطره السعال ان يفتح فمه . تسرب اليه صهد محرق لسع حلقه كجمرة نار ، تنفس بشوع غريب من الضيق . وضع راحته على انفه . تبخرت بهواء جاف وحار . مسح عينيه بكفه ، واستنطق المسافة الباقية ، ازاح حصوة وخزت راحته . هل يقدر له ان يرى فطرات الماء تلمع في الضوء ، وتدنو من شفثيه؟! بوسعه ان يستمر شوطا اخر باغراء فطرة واحدة . لا طمع له فسى سقوط المطر ، ليس هذا موسمهم ، ولو نزل خطأ فلن يتصور كيف يروى ثلاثة ايام من العطش . هذا طمع يفرزه بقايا خيال او هفوة حلم . يضع فطراته كفي لرد الروح ، والفطرة الواحدة تبل ريقه الجاف .. اصعب الايمان . كم عبت بالفطرة .. والفطرات . لم تكن

القطرة الواحدة تحسب ماء في الليل ، فكيف تحسب الان ! انها تعادل كل الانهار . لن يطلب من القطرة ، والقطرين ، تعويضا عن فقدان الماء والملح المتبخرين من جسده . هذا ترف تسجحه احلام مصنوعة . انه طول عمره فنوع ، فكيف يبالغ في ظرف اختلت فيه مقاييس الامور؟! حقد في العربية برهه ، وفي السماء برهتين . هسس من جوفه :

- يا رب .. قطرة !.

اصطدمت ركبته بحجر ، صرخ صرخة مبحوحة ، غام لون الرمل في عينيه ، خيل اليه ان حواسه تدخل في الفيضوية ، وانه يفوض في الرمل كحشرة مذعورة ، اسعفه زميله بتدليك صدفيه ، وجبينه . فتح احدى عينيه بمسفة . لم ير سوى الهدوء .. وحيدا ، تقتصيه شمس الظهيرة . جره زميله الى شجرة صبار . ادخل رأسه فى ظلها القصير ، وترك جسمه ممددا في الفرن الشمسي . لم ينته الخثر من زيارة حواسه ، والشمس تشقق جلد كنفه بشرط متوهج، عليه ان يحتفظ بعدد من حواسه عاملا ، وينافس زميله في السباحة الرملية ! . غالب ارتخاء جفونه ، وهو يتوهم ، ان سعة الصحراء عجزت عن ان تمتص صرخته القصيرة . تنهد وزفر صهدا من صدره . احس ان صرخته تسكن اعضاء جسمه وحدها . صب زميله في غطاء الزمزية اخر قطرة بول يحتفظ بها . لم يتقزز حين رآها عكرة تسبح الديدان فيها ، دلقتها في الزمزية ، ثم وضع اصبعه كمصفاة على عنقها ، صب القطرة خالية من الديدان ، وفربها من شفتي صاحبه . لم يتأفف ((اسماعيل)) ولم يصب بالقرص من الريم الذي يطوق حلق الزمزية وغطاها . وارب شفتيه المشققتين وشرب القطرة . ضمهما في الحال حتى لا ينفذ هواء يونيو الساخن يجرح حلقة او يمتص الرذاذ . القطرة مالحة وملتهبة ، ورائحتها بلا وصف ، ورغم غثيانه لم يفكر ان يلفظها كما حدث من قبل . ابتلت زلطة فابعة في فمه . نصحه زميله في البداية ان يلوك الزلطة كلما شح الماء . غرس اصابعه عميقا في الرمل وبحث في عينيه عن الدموع للبكاء . لم يجد القدرة حتى على البكاء الجاف . احتك ساعده بالمصحف في جيبه . شرد في الفضاء ، تذكر كيف انقطعت تلاوته عند الفارة الاولى ، فلم تعبر كلمة الذبح في رؤيا ابراهيم لولده . لا فدية لمن نخلى عنهم الرب ، والفضاء غير مكترت بهم ، لا بمطر فدية ... ولا مظلة جوية . غمغم بيأس :

- يا رب ... هل انت في السماء ... نظرة واحدة ما دمب هناك !

ويغمض عينيه ويفتحهما . ويدبر وجهه عن السماء حائرا ، ويهز يد زميله ، وهو يحاول ان يصرخ بصوت واهن مشروخ :

- لماذا لم يكن معنا !

ويرفع كفيه يخفي وجهه ، ويهمس خجلا :

- وهل كنا مع انفسنا؟! ... لو قدر له ان يعود .. لن يكرر الزيف مع نفسه .. سيعلق على ظهره بطافة بلاهة ، متصارحا مع عشرات العيون التي تستقبله .

ضرب دماغه بيديه مرات . بوغت برأسه يدور ، تناوشه دقائق متقطعة ، هذه الدقائق علامة انفجار بلا موعد .

لو انفجر رأسه هنا لن يصاب بالخجل . فهنا ساحة الانفجارات من كل الانواع . وخطر له ان يوصي زميله بتكفينه بالقميص ، وسرح لحظات في المبهم ، ربما في الآخرة ، منتظرا طلوع روحه . لماذا يرغب ان يغطي جسده ؟ اما زال يعرف احساس الخجل ؟ ولا يريد ان يموت عاريا؟! وانتظر ان يفضح للكان بالزحام ، وينضح بالعرق . لم تخرج الضجة بعيدا عن رأسه ، ولم يغيره العرق . لو يبسل بكهية تماذا زمزميتين . سيعرف تماما كم تزن ذنوبه . سيكون الحساب نزيها

اذا خلت تقارير الميزان من نفاق او خداع ذنوبي ! . حلم باثر عرق فوق شفتيه ، حاول ان يلحسه بلسانه ، وخز الالم شفته المشققه كتربة الشرافي . رفع ذراعا جافة كعود صبار قطع حديثا ، وتحسس شفته .

أحس ((اسماعيل)) بيد زميله تعود وتداك جبينه ، ثم تهززه برفق ، وصونه الخافت يفره بحساب الامتار الاخيرة .

- اسماعيل ؟ يا اسماعيل ؟ خذ نفسك . تشجع . وهيا بنا .

- يافندم . انفاسي نختنق من الدخان .

- لا يوجد دخان يا اسماعيل . انه لهيب الشمس . وعليك

ان تتحمل .

- يافندم . الدخان كثيف . وهذه النيران . متى تأتي حماية

جوية . يافندم ؟

- لن يأتي شيء . العدو يطوقنا . علينا ان ننسحب .

- يا مصيبتنا . ماذا جرى يافندم ؟ . كيف ننسحب وانت تعرف

الظروف ؟ .

- لا اعرف . لا اعرف . ليتصرف كل منكم .. و ...

وابتعد ((الرفيب)) دون ان يكمل ، وجرى يقفز في عربة جيب مع فائده . وجرى ((اسماعيل)) مع عدد من زملائه ، يحاول ان يلوذ بالجبل ومنحنياته . ولم يدر كيف وجد نفسه في الجانب الاخر من الجبل ، بعيدا عن هدف النيران ، ولم يبق من اشيائه سوى الزمزية . ابتعد عن المنطقة ، وابتلعته طرق لا يعرفها ، وفي سكنه عشر على جنسدي قتيل ، فتش جيوبه بحثا عن اطعمة جافة ، اكل بشهية امام الجثة ، وآثار الدموع لم نجف في عينيه ، وسار من جديد ، دون ان يفارق خياله صور رجال يتساقطون عبر الجبل ، واحدا واحدا ، ولح امامه زميلا نجا بنفسه من موقع اخر . صاحبه في طريق (الحسنة) دون ان يكتريا طويلا بمن يلتقون بهم شاردين . لفهما الليل مرتين ، وانكهما الصعود ، والهبوط ، والمسافات لا تنافس في عيونهما . وليل ثالث يزحف على فهم الجبال . نحس زميله رأسه ، تباطات خطواته ، ومال على الرمل متاوها . التفت الى جسده الضامر وأصر على ان يرفعه بعناد ، تراجع ، وسقط على الرمل . حاول ((اسماعيل)) ان يكون اوفر عنادا ، شد قامته ونحرك . انفرس حداؤه في الرمل ، وانحنى جسده الى امام ، وفقد نوازنه ، وسقط بجوار زميله . انتبه لحال قدميه . متورمنا .. متقيحنا بشيء لزج كالزيت الوسخ . خلع فائلته ، مزفها ولف بها قدميه ، وضمد جرحا ملونا بسذراع زميله . نمدد على جنبه يرفب معه سلسلة الجبال المتقاطعة فى لحظة الفروب . اهتزت المنطقة فجأة بانفجارات متتالية ، تصاعد دخان كثيف لون الفضاء بلون رمادي داكن . قرر زميله الابتعاد عن المنطقة في الحال ، لكنهما عجزا عن السير طويلا ، فاحتما خلف صخرة مجوفة . ونطلع زميله جهة الانفجارات بعين فلفة ، يلعب بخياله صورة ما يحدث هناك . ارتجفت أطرافه ، وانفجر باكيا . يلعن كل شيء ، ويهز كتف ((اسماعيل)) متهورا ويقول :

- ماذا حدث يا اسماعيل ؟ هل تعرف . اننا نموت مجانا ..

مرتين . مرة من البلاهة ، ومرة من العطش . كيف نسقط كالجرذان بلا مقابل ؟ هل تعرف ..!!؟

لمس ((اسماعيل)) زمزميته الفارغة ، وأجاب ببرود لا يعرفه عن نفسه ، كأنما ينوب عن شخص اخر :

- اطمئن .. بعد ان نموت . سيختفي الهوان . ولن نشكو

العطش . هذا ما اعرفه . فهل تعرف انت سيبا ليكانك !!؟

حقد في وجه ((اسماعيل)) بدهشة ، تشابكت العيون ، ثم

تباعدت فجأة تداري خجلها ، حرك زميله شفتيه ، وأذاب ملحها مجمدا

عاقا بلسانه :

الموت وحيدا . انه يقترب ، سيمائقه مجيرا ، تأجل الموت من العطش ،
ليفسح المجال للموت الاخر ، وكله بلا ثمن كما ادرك زميله ، ولن
تفديه السماء البعيدة !

صوت المدرعة يخرق اذنيه ، يتجول في رأسه ، تذكر القنبلة
اليديوية ، واحدة لا تكفي ، ستفضحه وتحدد مكانه . حرك شفتيه
بالشهادتين . تجمدا . نطق بهما في سره . انقطعت القذائف ، لكن
المدرعة مستمرة في اتجاهه . توان ويصبح في عداد الموتى ، وتبقى
جثته وحيدة عارية في الريح والصحراء . حفت المدرعة بالصخرة .
وففت برهة كأنها عام . انهزم رصاص جنودها يرش كل شبر حوله .
صمت تماما كأحد الموتى . غرق المكان في ضجيج موتور المدرعة . لم
يمد يدي هل تقدمت المدرعة ام ما زالت واقفة ! لعلها داست دماغه
فتفتت كحبات الرمال ، لا بد ان ذلك حدث ، فقد غابت صلته بدماغه ،
واصبح الان بغير رأس ، ولا ريب ان جسمه ممزق كالظفيرة . ومع ذلك
ظلت آلامه حية في نواح من جسمه ، واستحال عليه ان يفهم وسط
هذه الفشاة ، وبقي على حاله زمنا طويلا امخدرا جامدا ، الى ان
تجمع وخز قاس بأعلى فخذيه . هو تشقق الجلد دون ريب ، خيل اليه
انه يريد ان يتبول . لا فسحة لديه ، كيف يكون في وسعه ان يمارس
حاجته وهو ميت ! احس تحته برقعة رمل رطبة ، ومع ذلك لم يهدم
الاسم الا ثواني ، فأين ينتقل الان ؟! وارهب السمع محاذرا ، لكنه
يتورط فجأة ويسعل ، ويخفق جفناه المفلقتان بلا توقع ، فيتوهم شيئا
كالضوء يخفت ويتلاشى ، وود ان يكرر سعاله ، ويلفظ ذرات الرمل
من فمه ، كتمسعاله في صدره غير واثق من شيء . ضاق ذرا بحاله
وزحفت دقائق عنيفة في مؤخرة رأسه ، وخطر له ان ينتفس ، ويتصنع
اليقظة . لا صدق الا للصمت ، والظلام ممزوج باصداء ريح خفيفة .
نفض ذراعه تحت الرمل ، خرجت اطراف اصابه ، لمستها ريح رقيقة .
اشار على نفسه ان يجرب تحريك رأسه ، ويحسم ما تبادر الى ذهنه
من ازمة ثقة في موته . طواع عقله اخيرا ، وحينئذ تحسس رأسه
مشورها . كيف يكون هذا رأس حي ميت !!

هل انسحبت المدرعة ؟ غير معقول ..! قد تكون خدعة !؟

وتصلب ثانية ، لكنه لم يقاوم السكون غير لحظات ، وانهمكت
عيناه في استطلاع كل شبر على مدى بصره رغم ستار الليل ، ثم وجد
مكان الصخرة مستويا ، وآثار جنزير المدرعة لا يبعد عن موضع رأسه
سوى ثلاث بوصات ، واختلج جسده ، وباعثته رغبة حادة في بكاء ..
غير جاف هذه المرة !

محمود حسن العزب

(القاهرة)

مجموعات البياتي

صدر عن دار الأدب المجموعات التالية

للشاعر عبد الوهاب البياتي :

ق . ل .

٢٥٠

سفر الفقر والثورة

٢٠٠

الذي يأتي ولا يأتي

٢٠٠

أباريق مهشمة

٢٥٠

الموت في الحياة

٢٠٠

كلمات لا تموت

٢٠٠

الكتابة على الطين

٢٠٠

النار والكلمات

بعد ان نموت ؟ هل ستخفي المرارة ..؟ اخشى ان نلاحقنا .
هناك ؟ اما الهوان .. فمن يدري .. ربما سبقنا مبركا يلسوت
حضورنا !!
- ارجوك .. علينا الا نشغل فكرنا بغير الماء ، وبعدها قل ما
تشاء !

فك كل منهما أزرار بتلولونه ، وتبول في زمزميته ، ووضع فيها
قطعا من (الفولية المسئلة) ، حتى يصبح البول باردا مستساغا في
الشرب . وتمدد ((اسماعيل)) على الرمل ، بتوسد ذراعه . حدق في
السماء قبل ان يغيب في النوم . خيل اليه ان النجوم ممتقمة . عدل
عن النظر اليها ، وتشابكت كفاه دون ان يدري . حاول ان يخلصهما ،
لكن وجهها رقيقا يمسكها ، ويرجوه ان يعدل عن النزول في الماء .
يفلت من حصار الوجه ويهرع الى الماء . تصرخ فيه خطيئته ، وهو
يعمب بالماء منتشيا بعذوبته . تجره الى منصدة قريبة . تفتح له
زجاجة مثلجة . تسقط بضع قطرات على حافة المنصدة . يقبل
الجرسون بالفوطة . يصبح فيه بالابتعاد . ان يسمح للفوطة ان تمتص
هذا الشهد الراق . يميل برأسه ، ويلحس سطح المنصدة ، يشغف
مبالغ فيه . تعبس خطيئته حين يتماذى في غيه ، تشده مقطبة ،
تصطم ذراعه بحافة لمساء ، يفيق من نومه على يد زميله ، تهززه
بقوة ، وتدعوه ان يرفع لسانه عن سطح الزمزية .

- ((اسماعيل)) ؟ يا اسماعيل ؟ ما دمت تنتفس ، فلا خوف الان
من لهيب الشمس . تشجع . وهيا بنا الى العربية . واضح انها
عمرانة ، لم تمتد اليها يد النهب بعد . قم معي .. لن نضيع هذه
الفرصة ..

لم يجدا في كبيتها ، وعلى ظهرها سوى (جراكن) بنزين مليانة ،
ومخالي جنود مكدسة بمهمات عسكرية ، وقنابل يدوية . الماء ؟ تحسس
زميله ((الادرياتي)) فهو لا يخلو من ماء . فتشا عن خرطوم لشطف الماء .
انقرست فيه اسنان ((اسماعيل)) . دميت شفتاه قبل ان ينتهي من
قطعه . قضم زميله الخرطوم ، لم يعبا بجرح لثته ، ولم يتخل عنه
حتى انقطع . دسه داخل ((الادرياتي)) . شطف الماء ، سال في فمه
بعذوبة العسل . صرخ من الفرحة . هب ((اسماعيل)) مرتعشا يلطم
طرف الخرطوم كرضيع يتيم . اسكرته القطرات رغم ان الماء ملوث
بالصدا . لم يهتم الا بان ما يشغفه نوع من الماء ، بفوق في عذوبته
شفتي خطيئته . تناوبا الشرب حتى نفذ الماء ، انتقل مع زميله الى
(تنك) الهواء . سقط منه سرسوب من الماء المخلوط بالزيت الاسود .
شرب كل منهما ثلاثة غطيان ، ثم اضطرا الى التوقف فجأة . ظهرت
عربة مدرعة ، هرع زميله الى المهمات العسكرية ، وخطف قنبلتين
يدويتين ، وقذفهما ل ((اسماعيل)) وهو يصرخ فيه بالابتعاد السي
حفرة قريبة . لم يلتقط ((اسماعيل)) سوى قنبلة واحدة . لم يتركه
زميله يضع ثانية واحدة في التردد . طرحه بعيدا في نفس اللحظة
التي اتجهت فيها قذيفة المدرعة الى قلب العربية تنسفها مع زميله .

سابق ((اسماعيل)) الريح عائدا الى التل . اندلعت النيران في
العربة والبنزين . لاحقته المدرعة ، سقطت قذيفة بقربه ، ارتدى على
الارض برعية ، ثم انطلق تحركه طاقة فزع غريبة ، انحرف في احد
منحنيات التل . انكفا في منخفض . انطمس وجهه في الرمل . غشيت
عينيه سحابة رملية . لم يحفل بما اذا كان بصره كف ام لا . تنقل
خلف كتلة رملية كأنها تاب ، لا فائدة من الجري والهرب . توقف مرة
واحدة . اختبا خلف كتلة صخرية ، جرف بيديه الرمل ليقيم حفرة
في توان . صدره يلهث كموتور عربية عتيقة . لا يعرف ان كان صدره
انشق . لم يبق بينه وبين المدرعة سوى ١٥ مترا . مدد جسده في
الحفرة المسطحة ، أهال عليه الرمل ، ردم منه مساحة كبيرة . دفن
وجهه في كومة رمل ملتصقة بالصخرة . لف دماغه بيديه . صمت
تماما مستقلا تقطع انفاسه ، موها ليبدو كجزء من الصخرة . انتظر